الفصل الثانى

تاريخ الاستشراق

- فى الأندلس .
- فى فرنسا .
- فى صقلية .
- فى إيطاليا .
- فى إنجلترا .
- فى روسيا .
- فى النمسا .
- فى الدانمارك .
- فى المجر .
- فى هولندا .
- فى أمريكا .

● **فى الأندلس :**

اتصلت أوروبا بالثقافة الشرقية عن طريق الفتوح الإسلامية فى القرن السابع الميلادى وما بعده ، ثم عن طريق الصراع الذى يسمى بالحروب الصليبية [١] حيناً ، ويسميه الصليبيون واليهود والوثنيون والمصبوغون بثقافتهم بالاستعمار أو المطامع الاستعمارية حيناً آخر ، وذلك بُغيةَ التخفيف من حدة المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى أو اليهودى أو الوثنى ، بصرف القلوب الإسلامية عن حماستها تجاه الغزاة الصليبيين وحلفائهم إذا ما قرعت آذان المسلمين كلمة « الحروب الصليبية » ، فإن الصراع على الدنيا لا يساوى فى نظر عوام المسلمين فلساً ، والعفو من شِيَم الكرام ، وشعارهم : ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ﴾ [٢] ، ولهذا فإنه عندما يقال « استعمار » أو مجرد نهب واستغلال اقتصادى فإن عامة المسلمين لا يتحركون للمقاومة ، ومن ثَمَّ كان استبدال لفظ الاستعمار فى كتب التاريخ وفى البيانات السياسية بلفظ « الحروب الصليبية » ، وكان التعليل للتحركات والغزوات الصليبية بأنه انطلاق وراء دوافع اقتصادية أو سياسية إنما هو لعبة بارعة فى تضليل المسلمين عن الحقيقة ، وهى إرادة السيادة الصليبية ، وقد بذل الصليبيون مجهوداً كبيراً فى تغيير كلمة الحملات الصليبية أو اليهودية إلى كلمة الاستعمار أو المطامع الإمبريالية أو العنصرية الصهيونية ، وبهذا أصبحت الكتب والصحف ووسائل الإعلام ، بل وكافة الشعوب الإسلامية ، لا تعرف شيئاً عن الحرب الضارية ضد الشعوب الإسلامية ، فلا تتابع أخبارها بحماسة دينية إطلاقاً .

---

(١) بدأت الحروب الصليبية سنة ١١٩٧م وانتهت الحرب الثامنة سنة ١٢٩٥م .

(٢) الضحى : ٤

وقد كان فشل الصليبيين فى حروبهم دافعاً إلى المزيد من الاهتمام بالدراسات الشرقية ، وكان القرآن هو أول ما صوَّبوا إليه سهامهم ، وثنَّوا برسول الله محمد ﷺ ثم الخلفاء الراشدين والصحابة وتاريخ الإسلام كله .

وقد أوجد هذا النوع من الاستشراق العدوانى - فى الكيد للإسلام - كما قال « رودى بارت » سنة ١١٤٣م - حين تـمَّت أول ترجمة للقرآن إلى اللاتينية ، وأعقبها ظهور كتابات المستشرقين عن السيرة وعن بعض الشخصيات الإسلامية البارزة ، وذلك بُغية التأثير على المسلمين ليتركوا دينهم - فى حركة ظاهرها العلم وباطنها المكر [١] .

وفى الأندلس ، كانت ثقافة الإسلام مزدهرة ينهل منها الأندلسيون أو « الفندال » والأوروبيون بعامة ، فقد بلغ عدد معاهد التعليم فى عهد خلافة الحكَم بن عبد الرحمن (٩٦١ - ٩٧٦م) ما لا نظير له فى بلد أوروبى ، فقد كان فى قرطبة وحدها ٢٧ مدرسة منها مدرسة للطب ، عدا عدد من الكتاتيب ، وهكذا قُلْ فى المدن الأخرى .

هذا إلى جانب مكتبة « الحكَم بن عبد الرحمن » التى ضمَّت زهاء خمسمائة ألف مجلد ، وقد شجعت الدولة الوِراقة والترجمة والتأليف بما لم يُسمع مثله فى غير التاريخ الإسلامى ، فقد اشترى بنو أُمية فى الأندلس النسخة الأولى من كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى بألف دينار من الذهب .

وفى مقال لـ « دوزى » : « إنه لم يكن فى كل الأندلس أُمِّى ، يوم لم يكن فى كل أوروبا مَن يُلِم بالقراءة والكتابة إلا الطبقة العليا من القساوسة » [٢] .

---

(١) د . محمد عبد الفتاح عليان : أضواء على الاستشراق ص ٩ - ١٠ ، ومحمد عبد الغنى حسن : الإسلام بين الإنصاف والجحود ص ١١٦ - ١١٧ - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠

(٢) المستشرقون ص ١٢ - الطبعة الثانية .

بل إن كثيراً من العرب تعلَّموا اللُّغة الاتينية مع اللُّغة العربية لينشروا بها ثقافتهم (١) .

ومن مدرسة طليطلة تخرَّج المستشرق « ميشيل سكوت » (١١٧٥ - ١٢٣٥م) وهو رئيس مكتبة فردريك الثانى ، وقد دعا « ألفونس » - ملك قشتالة - المستشرق « ميشيل سكوت » ليقوم بالبحث فى علوم المسلمين وحضارتهم ، فجمع « سكوت » طائفة من الرهبان فى أحد الأديرة ، وشرعوا فى ترجمة بعض الكتب من اللُّغة العربية إلى لغة الفرنجة ، ثم قدمها « سكوت » إلى ملك صقلِّية ، الذى أمر بأن تُنسخ منها نسخ ، ثم بعث بها هدية إلى جامعة باريس .

وفى عهد خلافة « الحاكم » تلقى « جربر » أو « جربرت » تعليمه فى مدارس أشبيلية وقرطبة ، وقد اعتلى الكرسى البابوى (سنة ٩٩٩ م) باسم « البابا سلفستر الثانى » .

كما تلقى تعليمه فى مدارس الأندلس « الراهب بطرس المحترم » (١٠٩٢ - ١١٥٩) و « جيرارد دى كريمون » (١١١٤ - ١١٨٧م).

كما تلقى العلم فى مدرسة أشبيلية (١٢٥٤م) عدد كبير من كبار علماء الغرب .

ولم يشأ الأسبان أن يقطعوا أنفسهم عن الثقافة الإسلامية بعد طرد العرب من أرضهم ، فأنشأوا فى « طليطلة » مكتباً للترجمة (١١٣٠ - ١١٥٠م) ، وأنشئت مدرسة « صلمنكة » ، فى أوائل القرن الثالث عشر ، ثم أخذ كل صاحب رهْبنة وولاية ينشىء مثل تلك المدارس منها مدارس الدومينيكيين ، ومدرسة أراغون ، ومدرسة ميرامار ، وبقيت اللغة العربية لغة الثقافة

---

(١) المستشرقون ص ١٢

والمعاملات والعقود حتى عام (١٥٨٠م) وظلت بعض قرى « بلنسية » تتكلم العربية حتى القرن التاسع عشر .

وقد تعلم أمراء الصليبيين وبعض قُوَّادهم اللُّغة العربية فى الشام أيام غزواتهم الطويلة .

وفى عهد « شارل الثالث » استقدم رهباناً موارنة من لبنان لتعليم العربية للأسبان ، ومنذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادى تُدرس العربية رسمياً فى كبرى جامعات إسبانيا ، تدرس فى جامعة « مدريد » وكذا « غرناطة » و« برشلونة » و« صلمنكة » و« بلنسية » و« أشبيلية » ، وما زالت آثار العرب الأدبية والفنية شاهدَ عدل على آثار ثقافة العرب فى الأندلس ، فإن فن المقامات . . لا تزال تحتذيه المقامة الإسبانية التى تتجه إلى النقد والتقويم الخُلُقى .

ويذهب بعض مؤرخى الأدب إلى أن الشعر الغنائى الذى عُرِف فى فرنسا باسم منشديه « التروبادورا » . . نمت جذوره فى تربة إسبانية ، وقد عرفت ألمانيا شعراً يقابله ويسمى « مينسانجه » (١١٣٠ - ١١٥٠م) .

ويستدل لذلك « بأن آلات الطرب التى كانت ترافق الشعر الغنائى عربية بكاملها مثل القيثارة والمزمار والأرغن والعود » .

« وجُلّ أسماء الأمكنة والبقاع والمصطلحات وأصناف الماعون ومرافق الحياة هى عربية صرفة » .

وحين تزوج « فرديناند » الملكة « إيزابيل » (عام ١٤٩٢م) فجمعا بين ملكيهما ، واستوليا على « قرطبة » وكانت البقية الباقية للعرب ، وقَّعاً معاهدة ذات خمس وخمسين مادة تؤمن العرب على دينهم ، وترى لهم حقوقهم ، ولكن غدر الصليبية محا - بجبروته - نصوص المعاهدة عملياً .

ولقد دعا الكاردينال « أكسمنز دى سينرو » وكان ذا مكانة دينية كبيرة فى قشتالة (إسبانيا الحالية) إلى إكراه بقايا المسلمين الذين كانوا يُعرفون باسم « الموريسكو » على التنصر ، ولكى يقطع صلتهم بالإسلام وعلومه أشار بحرق كتب المسلمين ، فأحرق بالفعل ثمانين ألف كتاب إسلامى بعد الجلاء عن إسبانيا ، ثم أنشئت محاكم التفتيش لحرق كل من لا يرتد عن الإسلام ،

بل وكل نصرانى لا يعتنق المذهب الكاثوليكى ، وهكذا أصدر الإمبراطور « فيليب الثانى » فى أراجون (البرتغال حالياً) فى سنة (١٥٥٦م) قانوناً يُحرِّم على بقايا المسلمين فيها كل شىء يربطهم بالإسلام ، حتى لغتهم وأساليب معيشتهم ، وبلغ من غلوائه أن اعتبر الجماعات التى أنشأها المسلمون هناك بقايا نجسة فأصدر قراراً بهدمها (١) .

لقد أجلى العرب عن الأندلس عام (١٥٨١م) - ثم سنة (١٦٠٩م) ، حيث رحل بعضهم إلى شمال إفريقيا ، يحملون مفاتيح منازلهم التى يتوارثونها - الأبناء عن الآباء - على أمل العودة إلى بيوتهم ، ولو بعد حين ، كما رحل بعض المسلمين من الأندلس إلى إيطاليا وآخرون إلى جنوب فرنسا .

ومن المؤرخين مَن يرى أن أطماع أوروبا فى العالم الإسلامى فى القرن الثامن عشر كان هو بداية الاستشراق حين ضعفت قبضة الدولة العثمانية التى كانت تضرب سياجاً من العزلة ، منع الأوروبيين من الاتصال بالشرق فترة ، ثم ما لبثت أن تدخلت فى شئون الشرق كله .

ولكن وقائع التاريخ تبين - كما ذكرنا - أن ذلك كان فى القرن العاشر الميلادى .

* *

● **فى فرنسا :**

لم يستطع العرب التوطن فى فرنسا بعد فتحها بسبب شتائها المتواصل ، ولهذا آثروا جنوب فرنسا وجنوب كل الدول ، لأن مناخ الجنوب قد يشبه مناخ العرب من وجوه ، ولذا فإنهم بعد موقعة « بواتييه » لم يفكروا فى استعادة الشمال .

ولم تخل فرنسا من آثار العرب ، فقد علَّموا الفرنسيين عادة استعمال الأرقام والكسور ، وفن الزراعة ، وصناعة السماد والورق .

---

(١) الدكتور عبد الجليل شلبى ، صور استشراقية ، الكتاب الأول ص ٢٨ - ٢٩

ومن آثارهم مدرسة الطب فى « مونبيليه » ففى عام (١٢٢٠م) أنشأها المتخلفون بها من العرب القائمين وبعض عرب الأندلس ، وقد رممت وألحقت بها كليات الحقوق والهندسة وعلم الاقتصاد ، ومن تلامذتها « أرمنجان » الذى التحق بها عام (١٢٨٤ م) .

وقد فشت فى فرنسا فلسفة ابن رشد وابن سينا والرازى وعلوم ابن زهر ، وانتشرت منها إلى جامعات « بورغونيا » ، و« لومباردى » ، و« سويسرا » ، و« لوفان » ، فظلت تُدرس حتى عام (١٦٥٠م) ، ولا تزال لهذا فرنسا قِبْلة دارسى الفلسفة الإسلامية من طُلاب المشرق والمغرب [١] .

وفى « مونبيليه » عثر « دافيك » على ترجمة لاتينية للقرآن قام بها الأخ « دومنيك جرمان الصقلى »

ولقد كانت الصلات بين فرنسا والعرب مبكرة كما ذكرنا ، واستمرت حتى كان لجمهورية فرنسا مدرسة عربية بالجزائر فى أوائل القرن التاسع عشر .

وهناك مَن يعتبر الحملة الفرنسية على مصر وعلى غيرها من بلاد الشرق فى سنة (١٧٩٨م) هى البداية الحقيقية للاستشراق ، لأن هذه الحملة اقتحمت مصر وعلى سفينة الشرق إليها عدد كبير من المستشرقين الذين قاموا بعمل دراسات مختلفة نُشِرت فى كتاب « وصف مصر » .

ولعل هؤلاء يقصدون بقولهم : إن القرن الثامن عشر الميلادى - أو الحملة الفرنسية - هى بدء الاستشراق العدوانى ، وإلا فإن الاستشراق السلمى ، أو الهادئ ، بدأ قبل ذلك بوقت طويل بمئات السنين - كما هو واضح فيما ذكرناه من قبل ، وفيما سنذكره من صلات واهتمامات غربية بعلوم الشرق الإسلامى والعربى .

* *

---

(١) المستشرقون ص ٣ - ٤

● فى صقلية :

غزا العرب « سيسليا » مبكِّرين ، واستولوا على عاصمتها « بلرمة » ، واحتلّوا إيطاليا وأكثر مرافئها خطراً مثل : « قوصرة ، وقريطش ، وميورقة ، ومنرقة ، ويابسة ، وقبرص » ، والتحموا مع « البندقية » بحرب متواصلة ، وظل العرب فى صقلية حتى عام (١٠٧٢م) فحكموها قرنين ونصف قرن كانت خلالها أرضاً عربية .

وكان أول كارثة هزَّت كيان العرب فى صقلية هزيمة النورمانديين لهم فى معركة « سلرنة » عام (١٠١٥م) عندما حاصر العرب « سلرنة » لفتحها فاستعان أهلها بالنورمانديين .

ولئن تغلب النورمانديون على العرب عسكرياً فإنهم ما استطاعوا التغلب على ثقافتهم ، فقد ظلت « بلرمة » - عاصمة صقلية - مصدراً للثقافة الإسلامية بعد هذا قروناً طويلة ، وتسلل من المسلمين مَن أنشأوا مدرسة « سلرنة » عام (١١٥٠م) ، وفيها درس كبار علماء الغرب [١] .

وحين ولى الحكم بعد العرب الملك « روجه » كانت صقلية تتكلم خمس لغات لشعوب خمسة ، ولكل من أهلها شرائع ومذاهب ، فآثر الملك العرب على غيرهم ، فقد كان مثقفاً بثقافتهم ، وضمهم إلى بلاطه ، وفى عهد خليفته « غليوم » كان رئيس الطهاة عربياً .

وقد اتخذ « روجه » شارة « محمد كالمسيح » شعاراً للدولة عند سك نقوده ، وجعل فى إحدى صفحتى النقود : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وكان شعار الدولة فى عهد « غليوم الثانى » : « الحمد لله حق حمده » .

وهكذا - كما قال دوزى - كان ملوك صقلية وأمراؤها عرباً فى ثقافتهم وحياتهم وفى طرق حكمهم ولباسهم وقصورهم ومعايشهم وأحفالهم [٢] .

---

(١) المستشرقون ص ٥ (٢) المستشرقون ص ١٦ ، ١٧

وقد ساعد على نشر العربية فى صقلية أن التجارة يوم ذاك كانت تدفع إلى دراستها ، فإن المعاهدات التجارية بين العرب وغيرهم كانت تُكتب بالعربية .

وكما كان لألف ليلة وليلة أثرها الكبير فى فن القصة الفرنسية ، كان لكتاب « كليلة ودمنة » أثر فى الفن القصصى لدى الإيطاليين والصقليين ، بل إن العرب أَثْروا اللُّغتين - الصقلية والإيطالية - بما أودعوه فيهما من ألفاظ عربية لا يزال الكثير منها فى كليهما .

* *

● **فى إيطاليا :**

يمتد تاريخ معرفة إيطاليا للعرب إلى ما قبل الإسلام ، فقد كان « فروة ابن عمرو الجذامى » قائد فرقة من الروم فى غزوة مؤتة ، وقد فتح العرب روما عام (٨٤٦ م) .

وبعد أن وقعت فى أيديهم « بلرمة » عام (٨٣٠ م) و« ترانتو » عام (٨٤٠ م) وبعد سقوط روما سنة (٨٤٦ م) انتشر المسلمون فى جنوب إيطاليا « نابولى - سالرنه - مونتاكسينو - دير رهبان البندكتيين » سنة (٨٨٤ م) ، وفى « سلرنة » عرف الطب العربى فى القرن العاشر الميلادى ، وعندما افتتحها النورمانديون عام (١١٧٦م) لم يسعهم إلا أن يشجعوا الثقافة العربية فى كل فنونها .

فلما كان حُكْم « فريدريك الثانى » لإيطاليا عام (١٢٣٢م) اهتم بالعلوم الإسلامية - فلسفية وطبيعية وكونية - اهتماماً كبيراً .

وحسبنا دليلاً على عظم منزلة المسلمين عنده ، وعند الأوروبيين عامة - أن فيلسوف الأندلس « ابن سبعين » كان كتابه « ما لا بد للعارف منه » يحظى بالقبول لدى كل أوروبا ، وأنه عندما فرَّ إلى إفريقيا فى عهد الخليفة المهدى الفاطمى أرسل إليه « فريدريك الثانى » يسأله عن قضايا فلسفية ، فأجابه بكتاب يقع فى (٤٩٧ صفحة) وعنوانه « المسائل الصقلية » وفى « أكسفورد » منه نسخة خطية .

وكان فى بلاطه وبلاط جُلِّ ملوك أوروبا يتمتع بالإكبار والتَّجلَّه [1] العلامة « الإدريسى » ، وكان هذا مدعاة إلى اتهامه بالزندقة من بعض المسلمين واتهام « فريدريك » بالانحراف الدينى من بعض المسيحيين .

* *

● **فى إنجلترا :**

بدأت انجلترا تُعزَى بالثقافة العربية منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، فقد وفد إليها من « طليطلة » فى إسبانيا « إبراهيم بن عزرا » فزار لندن عام (١١٥٨م) ، ودرس فيها حقبة من الزمن ، وهو وإن كان يهودياً فإنه قد لقن ثقافته من جامعات الأندلس الإسلامية .

كما وفد إلى انجلترا القاضى « توماس براون » الذى تخرَّج فى جامعات صقلية الإسلامية ، وعمل قاضياً فى صقلية فى فجر حياته .

كما وفد إلى الجامعات الإسلامية من إنجلترا كثيرون مثل « إدلارد أوف باث » الذى نقل كتاب « إقليدس » ، وقد تبعه « دانيال أوف مورلى » ، ثم حذا حذوهما فى القرن الثالث عشر « ميخائيل سكت » الذى ترجم إلى لغته كثيراً من الكتب العربية فى الفلسفة والفلك والكيمياء ، فكان لمترجماته أثرها فى تكوين جيل جديد من الفلاسفة أو الأدباء مثل « روچيه بيكون » والشاعرين « تشوسر » ، و« لدكيت » ، وكان هذا أول دفقة ساقت أمامها الإنجليز إلى تفيوء ظلال الثقافة الإسلامية ، وكان أول كتاب طُبِع فى إنجلترا هو كتاب « كلمات الفلاسفة وحكمهم » ، وقد روعى فى تبويبه ومنهجه كتاب « مختار الحكم ومحاسن الكلم » لمبشر بن فاتك المصرى سنة (١٠٥٣م) .

وما جاء القرن السابع عشر حتى أنشىء فى جامعتى « أكسفورد » و« كمبردج » منبران لأستاذية اللُّغة العربية ، وكان أستاذ الكرسى بأكسفورد هو القس

---

(١) التجلَّه : الإجلال والتعظيم والاحترام .

« إدوارد بوكوك » ومن الأساتذة « مرجليوث » (١٨٥٨ - ١٩٤٠) عضو المجمع العلمى بدمشق و « هنرى چيب » داعية الوحدة العربية ، لحجب نداء الوحدة الإسلامية .

وفى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى أنشىء منصبان جديدان للُّغة العربية فى جامعتى « أكسفورد » و« كمبردج » ومن أشهر أساتذة القسمين « هانط » ، و« هايد » ، و«جانييه » ، و« والس » و « فورد » ، و« بريدو » (١٦٤٨ - ١٧٢٤م) والأخير مؤلف « تاريخ حياة النبى » .

وفى أواخر القرن الثامن عشر جهزت جامعة « أكسفورد » مطبعة عربية نشرت كثيراً من المخطوطات النفيسة ، فاحتل الأدب العربى مكاناً مرموقاً لدى معظم الأدباء الذين استوحوا « ألف ليلة وليلة » وغيرها من قصص الشرق التى جعلت للأدب الإنجليزى سمة شرقية ، وفى نهايته أيضاً كانت الحملة الفرنسية على مصر فدخل الشرق الأدنى فى حيز السياسة الأوروبية .

وفى مطلع القرن التاسع عشر أنشىء بجامعة لندن منصب للأستاذية لعلوم العربية ، وأسس معهد اللُّغات الشرقية بلندن ، ورأس قسم اللُّغة العربية فيه لأول مرة المستشرق الإنجليزى « توماس أرنولد » (١٨٦٤ - ١٩٣٠) وقد زار مصر أوائل عام ١٩٣١ ، وهو صاحب كتاب « دعوة الإسلام » الذى ترجم إلى العربية والتركية والأوردية ، كما شكلت الجمعية الآسيوية الملكية فكان لها دورها فى تنظيم حركة الاستشراق تنظيماً علمياً مستقلاً يستهدف الأغراض التبشيرية والسياسية .

ولعل من أبرز المستشرقين السياسيين المعاصرين « أنطونى إيدن » وزير الخارجية البريطانية الأسبق و « إمرى » الذى كان نائباً فى الهند .

* *

● **فى روسيا :**

لم يكن الروس ذوى كيان دولى إلا بعد الإسلام . فقد كانوا يعيشون متأخرين كالوحوش الكاسرة حتى اضطروا إلى أن يطلبوا من النورمانديين أن يحكموهم ويأخذوا شطر غلات بلادهم ، وهؤلاء النورمانديون هم أجداد الإستاندناويين (اسكندنافيين) ، وقد سموا فيما بعد « روس » ، وقد ذاب « السلاف » الأصليون فى النورمانديين وتعلموا منهم فنون الغزو فاستولوا على مدينة « كييف » التى بناها الخزريون ، وأصبحوا ذوى علاقات بالشعوب المتقدمة كالبيزانطيين والبلاد الإسلامية حيث يبيعون العبيد والفراء لأهل هذه البلاد المتقدمة ، واستمر الحال على هذا المنوال إلى الغزو المغولى لأرضهم عام ١٢٢٤م ، وفى أثناء الاتصال بالبيزنطيين اعتنق السلاف المذهب الأرثوذكسى بفضل مساعى الأميرة « أولغا » من أسراء « كييف » ، كما نظم الڤاتيكان والكنيسة الأرثوذكسية حملات تبشيرية لإدخال المغول فى المسيحية ، ففشلت واعتنق « بركة خان » - حاكم البلاد - دين الإسلام بعد تعرفه على معتقداته من البلغار المسلمين المتمركزين على نهر « إيديل » ، فدخلت بهذا دولة « التون اردا » فى عداد الدول الإسلامية برئاسة « بركة خان » .

ولما تفككت دولة « التون اردا » بسبب الخلافات الداخلية عام ١٤٣٧م رفعت الإمارات الروسية بتدبير « بطرس » - رئيس أساقفة الروس فى موسكو - راية التمرد على الحكم الإسلامى ، فانقسمت الدولة الإسلامية فى روسيا إلى أربعة أجزاء .

١ - « قازان » : شمال منطقة إيدين (الفولجا) .

٢ - « اشترخان » : جنوب نهر الفولجا .

٣ - « القريم » : على شواطئ البحر الأسود .

٤ - منطقة الروس فى « نوس فورد ، وكييف ، وموسكو » .

والثلاث الأولى دول إسلامية ، والأخيرة مقاطعة كبيرة الآن أرثوذوكسية .

واتفقت كلمة الأوروبيين على إبادة هذه البلاد الإسلامية ، ونظم البابا عدة حملات عسكرية باءت بالفشل مما جعله يستقدم مهندسين من « ڤيينا » و« اسكتلاند » لصنع مدافع ثقيلة تدك القلاع المحيطة بمدن « قازان » ، فتم لروسيا بهذا العون الكنسى ما أرادت من قصف القلاع الذى أعقبه ذبح المسلمين ، لا فرق بين صغير وكبير وذكر وأنثى ، وتوزيع أراضى الفلاحين المسلمين على قادة الجيش الروسى ، ولا يُسمح لفلاح بامتلاك أرضه إلا إن أعلن تخليه عن الإسلام واعتناقه النصرانية ، هكذا فعل الروس بقازان ، وبعد عامين تكررت المأساة فى « اشترخان » ليتم بناء إمبراطورية روسيا على أشلاء المسلمين ، وشجع ما فعلته روسيا غيرها على شن حملات الاستعمار فى آسيا وإفريقيا ، وإنه على الرغم من تصفية الاستعمار فى كل من آسيا وإفريقيا فى القرن العشرين ، فإن البلاد الإسلامية التى كان الروس قد استولوا عليها لا تزال فى قبضة الروس .

وعندما هبَّت الحرب العالمية الأولى على العالَم أغرقت ألمانيا « لينين » بالمال والسلاح ليُحدث انقلاباً فى روسيا التى وقفت شامخة تقاومها بفضل وقوف المسلمين ضد الألمان ، وكان « لينين » يعيش فى سويسرا .

* *

● **فى النمسا :**

كانت علاقة النمسا بتركيا قوية ، وقد أرسل « فرديناند الأول » : « فون بيسبك » سفيراً له لدى الباب العالى أسوة ببقية الدول ، فأقام فى الآستانة سبع سنين جمع فى أثنائها من المخطوطات الشرقية الشىء الكثير النادر ، فلما

رجع إلى وطنه كان يصطحب مكتبة زاخرة فأحسن البلاط استقباله ، ثم تحول الاستشراق السياسى إلى الاستشراق العلمى ، إذ اضطُرَ السفراء إلى التفاهم مع الدول الإسلامية التى يمثِّلون دولهم فى بابها ، وكانوا قد استعانوا - بادىء ذى بدء - بالتراجمة من المسيحيين الأتراك ، فأنشأت النمسا فى عهد الملكة « مارى تيريز » مدرسة شرقية لتثقيف القناصل والتجار والأدباء ، واستدعت الحكومة فيما بعد الأب « أنطون عريضة » لتدريس العربية فى جامعة ڤيينا .

ومن أشهر مستشرقى النمسا المهتمين بالمخطوطات العربية المستشرق « برغستال » (١٧٧٤ - ١٨٥٦) فقد جمع كثيراً من المخطوطات التى استولى عليها الفرنسيون ، وقاتل فى سبيلها حتى استرد مائتى نسخة وفقد مائة [١] .

* *

● **فى الدانمارك :**

يرجع تاريخ الاستشراق فيها إلى ما يسمى عهد التوراة (١٥٥٧م) ، أى عهد بعث نصوصها ونفى الزيف عنها ، وذلك تشبُّهاً بالدول الكبرى التى نهضت لهذا ، تقودها ألمانيا ، إلا أن الحركة الاستشراقية كانت بطيئة فى الدانمارك أول الأمر حتى أرسل الملك فى عام (١٦٥٩م) المستشرق « باتروس » إلى الشرق لدرس لغاته ، وانتساخ مخطوطاته ثم حذا حذوه كثيرون .

فقد أرسل رئيس الوزراء الدانمركى « بريسترف » بعثة علمية بها بعض علماء السويد إلى جنوب بلاد العرب لدراسة كل شىء عنها ، وقامت البعثة عام (١٧٦١م) برحلتها ، وفى أثناء الرحلة مات الكثيرون وعلى رأسهم

---

(١) المستشرقون ص ١٦٥ - ١٦٦

رئيسها « فون هاڤن » عام (١٧٦٣م) فخلفه « نيبهر » (١٧٣٣ - ١٨١٥م) الذى قابل الإمام ، ومكث ثمانية أشهر باليمن رحل بعدها إلى بمباى بالهند عام (١٧٦٣م) ، ثم عاد لجولة بالبلاد العربية والإسلامية الملاصقة ، فزار العراق ، والشام ، وفارس ، وتركيا ، وعاد إلى بلاده أواخر عام (١٧٦٧م) وسجل رحلته هذه فى ثلاث مجلدات [١] .

* *

● **فى المجر** :

المجر أمة أصلها شرقى - آسيوى ، فإن أجدادهم زحفوا نحو أوروبا فهاجمهم البشناق ، ففر بعضهم متراجعاً إلى الشرق ، ووقع بعضهم أسرى سيقوا إلى « هنغاريا » الحالية ، فاعتنقوا النصرانية ، وتكوَّنت منهم المملكة المجرية ، وكان المجريون يحلمون دائماً بالبحث عن بنى عمومتهم ، فقاموا ببعض الرحلات فى القرن الثامن عشر الميلادى ، واهتموا بالدراسات الشرقية بعد احتلال العثمانيين بلاد المجر فى القرن السادس عشر وحُكْمهم لها قرناً ونصف قرن .

وأول الذين يمكن أن يُدْعوا مستشرقين هم طبقة الكُـتَّاب الذين استخدمهم الباشوات الأتراك فتعلموا اللُّغتين التركية والعربية .

وهكذا قام « روسنبى » بنقل كتاب « كليلة ودمنة » من العربية إلى المجرية ، وتبعه طلبة الدين بعد تحرير المجر ، فقصدوا أشهر جامعات هولندا وألمانيا لدراسة اللغات الشرقية وبخاصة اللُّغتين العبرية والعربية ، ومن هؤلاء الطُلاب « چون أورى » عام (١٧٢٤م) ، الذى أقام فى « ليدن » بهولندا من سنة (١٧٥٦ إلى سنة ١٧٧٠م) وطبع البردة ، وهى أول الكتب العربية التى نشرها ، وفى

---

(١) المرجع السابق - الفصل ١٢ ص ١٧٦

عام (١٧٧٠م) التحق بجامعة « أكسفورد » ، وعمل لمكتبتها البودلية تقويماً لكل مخطوطاتها .

وعندما أَسَّست الإمبراطورة « ماريا تريزا » فى « ڤيينا » مدرسةً لإعداد السفراء والقناصل لبلاد الشرق تعلم فيها الكونت « شارلس رفيكسكى » (١٧٣٦ - ١٧٩٣م) وصار سفيراً فى وارسو ثم فى لندن ، حيث توثقت عرى الصداقة بينه وبين السفير « وليم چونس » المستشرق الإنجليزى .

* *

● **فى هولندا :**

قال الأستاذ العقيقى : « عرف الهولنديون العربية قبل معرفة الألمان لها لأسباب خلاصتها :

١ - الخلاف الدينى الذى وقع بخروج « لوثر » على الكثلكة خروجاً عمَّ الغرب ، وقضى عليه بالعودة إلى التوراة وتأسيس جمهورية الولايات الهولندية المتحدة ، وهذا قد فتح الأذهان والعيون على أساليب الشعوب المتقدمة فى دراسة أحوال الآخرين وبخاصة العلوم الشرقية ، وهذا بدوره يعطينا ضوءاً على سر الحركة التبشيرية فى إندونيسيا التى كانت تحت الحكم الهولندى .

٢ - اتصال الهولنديين بعرب مراكش والجزائر وطرابلس الغرب ومسلمى الهند الشرقية اتصالاً سياسياً وتجارياً .

وأهم آثار هولندا فى الاستشراق :

١ - منشورات مطبعة ليدن الهولندية التى أنشأها « توماس أربانيوس » (١٥٨٤ - ١٦٢٤م) بماله الخاص ، وهى تضم مخطوطات نفيسة قضى علماء هولندا قروناً فى جمعها ، ويُعَدُّ « أربانيوس » بمطبعته مؤسس النهضة الاستشراقية فى هولندا ، فهو كـ « دى ساسى » فى فرنسا .

٢ - تكوين جماعة المستشرقين عام ١٩٢٠ فى ليدن ، وهى تصدر مجلة علمية اسمها « الأعمال الشرقية » .

* * *

● فى أمريكا :

اهتمت أمريكا بالعربية من أجل فهم الكتاب المقدَّس ، ولم تنل العربية حضاً موفوراً بها إلا فى العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر حين أحسَّ الدارسون الأمريكان بأهميتها فى درس خصائص اللُّغات السامية ، ولما كان لها من سيادة فى القرون الوسطى بين لغات العالم .

وكان أول اتصال مباشر لهم بالعرب هو ما كان فى عصر الخديوى إسماعيل حين غزوا « أريتريا » ، ثم حين أسس « دانيال بليس » الجامعة الأمريكية فى بيروت ، و« شارلز وطسن » الجامعة الأمريكية فى القاهرة .

ومن العوامل التى شجعت على البحوث العربية وجود جالية عربية لبنانية وسورية كبيرة غنية مهيبة الجانب لها احترامها فى أمريكا ، ولذلك أسست الجمعية الآسيوية سنة (١٨٤٢م) تأسِّياً بانجلترا من قبل ، وأنشأت الجمعية لها مجلة آسيوية فى « بوسطن » ، وكان للدكتور « فيليب حتى » اللِّبنانى الأصل أثر كبير فى تنظيم مكتبة جامعة « برنستون » التى تضم (٢٥٠٠) مخطوطة عربية .

* * *

● المستشرق الأمريكى « روجر آلاند » :

درس اللُّغة العربية فى جامعة « أكسفورد » ببريطانيا ، وأشرف على دراسته لها الدكتور محمد مصطفى بدوى ، فابتدأ بدراسة النصوص الأدبية حتى تذوقها ، ثم تخصص فى دراسة الروايات العربية ، وكانت أطروحته للدكتوراة عن « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحى .

ثم انتقل إلى أمريكا سنة ١٩٦٨ ، وهناك درس الأدب العربى المعاصر ،

وذهب إلى مصر سنة ١٩٧١ ، والتقى بنجيب محفوظ فقرأ له « ميرامار » و« زقاق المدق » و « خان الخليلى » ، و« القاهرة الجديدة » .

وأصبح أستاذاً للأدب العربى بجامعة « بنسلفانيا » الأمريكية ، وكانت إحدى دراساته عن نجيب محفوظ أساساً ارتكزت عليه لجنة « نوبل » لمنح الجوائز الأدبية إلى جانب دراسات المستعربة السوفييتية « فاليريا كربتشينكو » .

❊ مؤلفاته :

له « القصص عند يوسف إدريس » وألف ليلة وليلة ، والمسرح العربى ، والرواية العربية ، والأدب العربى المعاصر .

كما ترجم إلى الإنجليزية من أعمال نجيب محفوظ « المرايا » ، و« الحرافيش » ، و« حكايات حارتنا » ، و« أولاد حارتنا » ، كما ترجم لجبرا إبراهيم جبرا « السفينة » ، و« البحث عن وليد مسعود » .

❊ مشاركاته الأدبية :

شهد مهرجان المربد الشعرى التاسع الذى عقد فى بغداد (نوفمبر ١٩٨٨) وشارك فى أعمال معرض القاهرة الدولى الحادى والعشرين للكتاب ، وكان معه حوار أدلى فيه ببعض آرائه فى الأدب فقال :

« الأدب العربى الحديث وريث لتراث غنى كل الغنى فهو أقدم من الآداب الأوروبية ، فالغزل شعراً ونثراً كان مما سبق به العرب الأمم .

« فلئن كان للأدب المسرحى فى الغرب ميزة ، فللشعر المعاصر تفوق ، وهكذا لا زالت القصة العربية لها امتياز .

« لا ينطق الغرب اسم نجيب محفوظ نطقاً جيداً ، ومع هذا فقد ترجمت له كثير من الروايات بعد ظفره بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨ ، كما أصبح أدبه مطلوباً فى أقسام الآداب بجامعات الغرب .

« والكاتب معجب بالثلاثية « بين القصرين ، السكرية ، قصر الشوق » .

❊ ❊

● **تطور الاستشراق :**

أصبحت الحركة الاستشراقية فى السبعينات حتى الآن فى صورة أضخم ومكثفة ومركزة بحيث أمست مدارس الاستشراق فى الغرب ، يعمل بها شرقيون وعرب بصورة كبيرة ، حقاً كان أستاذنا الدكتور « محمد مهدى علام » أستاذاً للعربية ، ومدرساً للإنجليزية بإنجلترا . . ولكنه وأمثاله قِلَّة رُسِمَ لها دور تعليمى .

أما الآن فأصبحت الحركة الاستشراقية ذات آفاق رحبة ، وإليك أمثلة :

*** فى بلچيكا .. بجامعاتها :**

فى جامعة « لوفان » البلچيكية مركز الدراسات والأبحاث العربية الحديثة ، يعنى بالتطورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى العالم العربى ، يشرف عليه الدكتور بشارة خضر ، وهو فلسطينى ، الذى ظهر له بالأسبانية بعنوان « العالم العربى على عتبة عام ٢٠٠٠ » ، وقد تابع مع كثير من العرب والأوروبيين « الحوار العربى - الأوروبى » ، وعمل عضواً فى اللِّجان المنبثقة عنه .

وفى عام ١٩٨٢ نظم فى جامعة « لوفان » مؤتمراً عن التعاون العربى الأوروبى شارك فيه أكثر من سبعين خبيراً عربياً وأوروبياً ، وكانت أعمال المؤتمر فى ثلاث مجلدات تعتبر مرجعاً أساسياً لكل مَن يهتم بمشكلات العلاقة بين العرب وأوروبا .

*

*** فى الإذاعة البريطانية :**

يتولى الآن (ديسمبر ١٩٨٩) سامى حداد رئاسة البرامج الإخبارية فى القسم العربى لهيئة الإذاعة البريطانية .

*

❊ الجاليات الشرقية بالغرب :

أصبحت الجاليات الشرقية عُمَداً أساسية فى دول الغرب ، ففى إنجلترا مثلاً حيث يوجد لليهود نحو ٤٠ ٪ من مقاعد مجلس النواب ، يوجد من المسلمين عدد كاليهود ، ولكنهم غير منتظمين ولا مجتمعين على أهداف موحدة يقودها نظام واحد ، فأصبحوا كساقطى الهوية الإسلامية ، ولكنهم كفرادى لهم تأثيرهم فى الإنتاج المادى والفكرى . . وهكذا قل فى أستراليا والأمريكتين ، مما يُوجِد أحياناً بعض التقارب ويخفف ظلمة الضباب الذى كان يضعه القساوسة والمستشرقون منهم ، على عيون غير المسلمين .

❊

❊ مكتبة جامعة يوتا :

اهتمت هذه الجامعة الأمريكية بتسجيل أسماء كل الكتب التى صدرت بالإنجليزية فى الولايات المتحدة ، والتى تمت ترجمتها إلى اللُّغة العربية على امتداد ٣٧ عاماً (من سنة ١٩٥٠ حتى ١٩٨٧) .

وأسندت هذا العمل إلى الدكتور « رجائى معقار » ، فأعد قائمة تتضمن (٢٢٠٠) كتاب ، تم تنسيقها حسب أسماء المؤلفين وعناوين الكتب .

والمهم أن هذا الغزو الفكرى للقاعدة العربية من الأمة الإسلامية ، ليس له هيئة فى أى دولة إسلامية لمراجعته والتنبيه على ما قد يكون فيه من أخطاء .

❊ ❊ ❊

الاستشراق وجه جديد للحروب الصليبية

(١٠٩٥-١٢٩١م)

تولى البابا « إريان الثانى » منصب البابوية (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) ، وحشد همم الملوك والنبلاء والمغامرين إلى خضد شوكة الإسلام ، وبناء قلعة مسيحية فى فلسطين والشام ، ووعد مَن يذهبون إلى هناك جنات النعيم ، ومنح أول صك غفران لجنود الحملة الصليبية عام (١٠٩٥م) ، وظلت المقاومة الإسلامية تنشب كل يوم ، وكلما تخيل الصليبيون الاستقرار ، إلى أن كانت الحملة الصليبية الثامنة فيما بين عامى (١٢٧٠ - ١٢٩١م) .

وآمنت أوروبا بأن استخدام البندقية والسونكى لا يُجدى فى اقتلاع الإسلام ، ولا يزيد المسلمين إلا عناداً وإصراراً ، فقرروا أن يأتوا إلى قلوب المسلمين متسللين برفق ، فيذبحوا الإسلام داخل المسلم بالشهوات وبالفكر الملحد ، وأن يأتوا إلى الهيئة الاجتماعية فيدمروها بتدمير قواعدها الثابتة « اللُّغة - ونظام الحكم - وآداب الإسلام وسلوكياته فى الأسرة ، والشارع والمدرسة ، والجيش ، والمصنع » ، وكان من هذه الحملات ما اتخذ صورة البحث العلمى تحت لافتة « الاستشراق » .

وإن كان الحقد الصليبى والصهيونى والشيوعى والبوذى قد انبثق مرة أخرى ، وعاد إلى حمل السلاح بعد أن جدَّد أنواعه الأشد خطراً ، والأشنع دماراً ، وفى الوقت نفسه بعد أن روَّض القادة السياسيين فى العالَم الإسلامى على تمجيده وطاعته وحمايته ، وروَّض التعاليم الإسلامية ، والشعائر الدينية ، وصاغها بصيغ مستأنسة ، فسمى الجهاد فى سبيل الله باسم « الكفاح الوطنى » مثلاً ، وسمى عزل الإسلام عن الحياة العامة والسياسة باسم « العلمانية » ،

وسمى وزارة الجهاد : « وزارة الدفاع » ، وسمى الانحلال الخُلُقى والتخلص من قيود العفة والشرف والطهارة باسم « الحرية الشخصية » ، وسمى البذاءة فى الأدب والإسفاف فى الصورة البيانية ، وما كان يسمى أدب الفراش ، أو أدب الجنس باسم « الرومانتيكية » ، وشجب الأسلوب المحافظ فسماه « الرجعية » حيناً أو « الكلاسيكية » حيناً آخر .

ولذلك وجدنا « اللّنبى » حين دخل القدس سنة ١٩١٨ يصرح بما يدل على أن الحروب الاستعمارية ، وجيوش الاحتلال ، إنما تحمل روح البابا « إربان الثانى » الصليبى الروح العدوانية ، فيقول : « الآن انتهت الحروب الصليبية » .

ووجدنا أن بلاد المسلمين فى الفيلبين وأريتريا وفلسطين ولبنان وأفغانستان والصومال وألبانيا والبوسنة تُدَك دكاً . . ويُفعل فى النساء والأطفال أقبح وأشنع ما سجَّله التاريخ تحت أية تسميات ، ولكنها الواقع الصليبى فى أبشع وأفظع صورة وحشية .

وفى فجر الثورة الشيوعية عمل على إبادة مسلمى تركستان ، وبخارى ، وطشقند ، والقرم ، . . . و . . . إلخ .

وقد لخص « وليم جيفور بلجراف » أهداف الصليبية فى حروبها ومحور سياستها فى كلمته الطافحة بالإجرام :

« عندما يختفى القرآن ومكة من بلاد العرب يسهل علينا أن ندفع المسلم فى سبيل الحضارة » يعنى الحضارة الغربية المسيحية طبعاً .

وهذا هو ما أكده « مولوتوف » الشيوعى فى عبارته التى تمتلئ غيظاً فى خطبة له : « لن تثبت الشيوعية فى جمهوريات الاتحاد السوفييتى ، ولن تنتشر فى الشرق إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التى يعبدونها فى الحجاز (يعنى الكعبة ، والحجر الأسود ، ورمى الجمرات) وإلا إذا محونا القرآن من الوجود ، وإلا إذا قضينا على الإسلام » .

والحقيقة أن هذه الثلاث هى الشغل الشاغل لكل أعداء الإسلام .

١ - الحج والعمرة وما فيهما من مزايا للاجتماع وتزكية النفوس وتطهيرها من الشح والهوى .

٢ - والقرآن بلغته التى تجمع بين كافة المسلمين ، وقد استمرت محاولات طمسها بنشر العامية حيناً ، وكتابة القرآن والسُّنَّة بالحروف اللاتينية حيناً ، وبترجمة القرآن والسُّنَّة حيناً ، وبالدعوة إلى نبذ العرب للعربية والتحدث بلغة الأعاجم : الفرنسية أو الإنجليزية أو البرتغالية أو الإسبانية . . حتى تموت لغة القرآن والسُّنَّة فتجف ينابيع الدين ومصادر الفقه الأصلية ، وأخيراً استبدال الخطبة فى الجُمَع والأعياد من اللِّسان العربى إلى اللُّغة التى يكون فيها المهجر ، حتى تنشأ الأجيال الجديدة ولا علاقة لها بالقرآن والسُّنَّة ولغتهما لأنها تكون لغة مهجورة وأكثر من « لغة أثرية » فى الغرابة .

وقد كشف الاستشراق للغرب عن الفِرَق الإسلامية وصراعاتها التى يمكن أن تُجدَّد وتُبعَث لإيغار الصدور ، وصدع الوحدة الإسلامية .

ومن هنا كان التجمع الصليبى الصهيونى الإلحادى الوثنى ضد « الإخوان المسلمين » والمبادئ التى جاء بها الشهيد « حسن البنا » ولخصها فى رسالة التعاليم وشرحها فى مجموع رسائله ، لأنها تجمع وتمنع الفُرْقة ، وبمقتله وحَلّ جماعته ومصادرة كل ممتلكاتها واعتقال أبطالها أمكن تكوين جماعات تدعو إلى هذه المبادئ - فى ظاهر الأمر - وهى مُخترَقة من الداخل فى بعض المناطق على سعة الكرة الأرضية اختراقاً من أجل هدمها من الداخل : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الـمَاكِرِينَ ﴾ (١) .

وإن القرآن الذى يتعبد الله بلغته العربية كل مسلم من المحيط المتجمد

---

(١) الأنفال : ٣٠

الشمالى إلى المحيط المتجمد الجنوبى ، ومن أقصى الصين فى الشرق إلى أقصى بلاد الغرب ، يتلونه باللِّسان العربى ، ومع محاولات تدبرها فى ألفاظه ، فتذكرهم تلاوتهم بالله ، واليوم الآخر ، وتبصرهم بكل مقاصد القرآن .

ولذا يجتهد المستشرقون - ومن خلفهم كل وسائل الإعلام - فى سلخ الناس من معرفة الحروف العربية والنطق بها .

كنت أُصلِّى بالناس فى مسجد بين « كالونى » و« اسكنكتدى » ، وأخطب الجمعة باللُّغة العربية التى أوجب الخطبة بها كل الأئمة الأربعة . ويجوار ذلك ترجمة فورية لمن يحب أن يعرف الترجمة ، وكنت أصر على أن يتعلم الأولاد فى مدرسة عطلة الأسبوع اللُّغة العربية ، وتلاوة القرآن ، ومعرفة معانى ألفاظ القرآن ، حتى إذا قرأه فى صلاته كان للقراءة تأثير أكبر مما لو كان يقرأ كالببغاء ، ولكن رئيس مجلس إدارة المسجد - وكان باكستانياً ، وآخرين علمانيين - رفضوا ذلك بشدة ، وقالوا : لسنا فى حاجة إلى خطبة عربية أو تدريس العربية لأولادنا طبقاً لمنهجك ، يكفى أن يقرأوا كالببغاء ، وتلك آثار الاستشراق والعلمانية فى اختراق العمل والمؤسسات الإسلامية ، وبضياع القرآن يضيع الإسلام .

* * *

فى الحرب التى لا كالحروب

جاء فى كتاب « لعبة الأمم » اللاأخلاقية لـ « مايلز كوبلاند » : « وكانت العقبة الثانية هى النقص الفادح الذى كنا نعانيه فى عدد الأشخاص المؤهلين لخوض غمار حرب أطلق عليها الأدميرال « ساورز » مدير المخابرات المركزية اسم « الحرب التى لا كالحروب » ولم يكن وضع المخابرات المركزية ووزارة الدفاع أصلح من هذا . فكافة رصيدهم لم يتعد بعض **علماء الآثار والمبشرين** من مختلف الجنسيات الذين كانوا يتلقون التوجيهات من قِبَل أساتذة الجامعات المتقاعدين . وكان هناك خليط من رجال الأعمال الذين يُستندبون لبعض مهمات المخابرات الاعتيادية ، أو لبعض مهمات ديبلوماسية ما وراء الكواليس ، وكان علينا إذن أن نبدأ بحملة تجنيد واسعة وسريعة حتى نتمكن من تحمل مسئولياتنا فى تلك الأرجاء من العالم » (١) .

« وبدأنا العمل بتجنيد العناصر المتبقية من مكتب الخدمات الاستراتيچية بعد الحرب العالمية الثانية ، ثم ضممنا إليها أركان قيادة السلك الديبلوماسى إلى جانب احتياطيه من الرجال الذين **كانوا فى الخارج فى مهمات ثقافية وإعلامية** ، والتحق بنا بعض الديبلوماسيين المنتظمين رسمياً فى وزارة الخارجية ، ومعظم هذه العناصر التى هى من البعثات التبشيرية أو من أصحاب الفكر وبعض الهواة ، كانت تعتقد أن تغيير القيادات فى دول الشرق الأوسط عامة والدول العربية خاصة لا يستلزم أكثر من مجرد إزاحة بعض الدعائم والقُوَى التى أوصلت كثيراً من الزعماء إلى سُدَّة الحكم دون أن تتوفر لديهم أى كفاءات أو ميزات ، وسنستمر فى مساندتهم طالما امتلكنا القدرة على هذا » (٢) . ونعنى بهذه الدعائم الإقطاعيين والرأسماليين الجشعين وبعض القُوَى الأجنبية .

---

(١) ص ٣٧ (٢) ص ٤٠

« وفى ١٢ مارس (آذار) سنة ١٩٤٧ ، وبعد ثلاثة أسابيع من العمل الدائم لموظفى وزارة الخارجية والبيت الأبيض ، أُعلن عن مبدأ « ترومان » الذى كان يومها بمثابة جواب على المذكرة البريطانية المرسلة إلى وزارة الخارجية الأمريكية فى ٢١ فبراير (شباط) سنة ١٩٤٧ (الخاصة برغبة بريطانيا فى التخلى لأمريكا عن قواعدها فى تركيا واليونان) - ولم يمض زمن طويل على إعلان مبدأ « ترومان » حتى أعلن عن مبدأ آخر وهو « مشروع مارشال » .

وبدأت الحرب الباردة ، ولكن من أين نبدأ . . « لم يبق أمامنا سوى العالم العربى الذى بدأت الأمور تتفاقم بيننا وبينه ، وزادت شقة الخلاف اتساعاً غير قليل ، وكان ثانياً أن سبب هذا وجود قيادات طائشة مضللة على رأس السُلْطة فى تلك الأقطار ، وأن استلام مقاليد الحكم من أشخاص ذوى ثقافة أوسع وإدراك أعمق سينقل هذه الأقطار العربية من صف المناوأة إلى صف الموالاة لنا ، كما أن حذر العرب البالغ من السوفييت سيجعل الحماية الأمريكية لهم موضع ترحيب ، فشركات النفط الأمريكية ستجعل منهم أغنياء قريباً ، كما أن التوصل إلى أى تسوية حول مشكلة فلسطين ستجعل منهم المستفيد الرئيسى لكل ما يتأتى منها ، إلا أن إصرار الحكام على رفض هذه النظرة الأمريكية اضطر الأمريكان إلى العمل على الإطاحة بهم فى العالَم العربى . وفى سوريا قامت الشركات الأمريكية الخاصة بالتعاون مع أفراد الجالية الأمريكية وبعض الإرساليات التبشيرية هناك بتوجيه تحذير لأولئك السياسيين الذين اعتادوا اللجوء إلى الضغط والإكراه لحمل المواطنين على الإدلاء بأصواتهم لصالحهم (صالح السياسيين) من مغبة مثل هذه الأعمال » (١) .

« وتمكن رئيس إرساليات طائفة الكنيسة الإصلاحية « ميثوديه » أن ينتزع وعداً من أكبر اتحاد للمثقفين الأكراد بأنهم وزملاءهم لن يقوموا باستغلال أصوات الأُميين الأكراد فيكتبوا لهم على أوراق الاقتراع أسماء مرشحى الاتحاد » (٢) .

---

(١) ص ٤٣ (٢) ص ٤٣ ، ٤٤

« ولم تنجح سياسة أمريكا فى الانتخابات السورية ، ونتيجة لهذا بدأت وزارة الخارجية الأمريكية بتعليم أحسن موظفيها اللُّغة العربية ، وقامت بإطلاعهم على ثقافات الشرق الأوسط وعلى كل ما يمت لهذا الموضوع بصلة . كما قامت بتمشيط الولايات المتحدة بحثاً عن أمريكيين ذوى خبرات سابقة فى هذا المضمار » .

واستدعى « تشارلز فيركسون » الخبير فى التعليم السريع للغات ، من جامعة « هارفرد » ليبدأ فصولاً دراسية فى اللُّغة العربية لبعض الديبلوماسيين الشباب ، وكانت نتيجة هذه الفصول أنه قارب عدد الديبلوماسيين الأمريكيين المتعلمين للُّغة العربية عدد أولئك من البريطانيين ، وأربعة أضعاف أولئك من الروس ، وكان « أرتشيبالد روزفلت » حفيد الرئيس « تيودور روزفلت » منسق النشاط السياسى الخاص قد أمضى عدة أشهر مع قبائل عربية وكردية وفارسية ، وكان يتكلم اللُّغة العربية والكردية والأزبكية والروسية والفرنسية والأسبنولية وبضع لغات أخرى » [1] .

* *

● العقبات فى طريق الإسلام :

عن طريق العمل الاستشراقى والقضايا التى جعلها مسلَّمات فى تلافيف أمخاخ قادة الفكر بالشرق الإسلامى وبالوافدين المتوطنين بالغرب - ظهرت هذه العقبات التى نمت وتضخَّمت بتراكمات التأكيد الفكرى والعمل السياسى معاً .

فكان منها تقسيم الأمة العربية إلى دول ودويلات ، فضلاً عن التقسيم القَبَلى وتأريث تواريخ الدم الذى سال بين الأجداد الذين لم يشهدهم الأحفاد . ومن ذلك إحياء القوميات كالفرعونية والقومية العربية وكحزب البعث أو القومية الطورانية أو الأشورية أو الفينيقية أو الفارسية أو البربرية أو النوبية

---

(١) ص ٤٥ ، ٤٦

أو الكردية ، فقد أدى هذا إلى خصومة بين هذه الدول ، بل بين عناصر الدولة الواحدة كما نلاحظ ذلك فى العراق بين الأكراد والعرب ، أو بين السُّـنَّة والشيعة فى العراق وأفغانستان وسوريا . . إلخ .

وأحياناً تُستعلن الحرب العنصرية أو الطائفية ، وأحياناً تستتر إلى حين .

وهكذا إشعال فتنة « العلمانية » التى تصور الإسلام ديناً مناهضاً للسياسة وللعلم والاجتماع ، بينما الإسلام هو الرائد المنشط للحركة العلمية والإصلاحية .

ومن ذلك تصوير أن التقدم للدولة يكون بالحكم بالقوانين الوضعية والدساتير الغربية ، أو التى تتجه وجهتها ، ممَّا أدى إلى صراع داخلى بين السلطات الحاكمة بإمكانياتها المسلَّحة والإعلامية ، وبين الشعوب ودعاة الإسلام فيها العُزْل من السلاح ، ومن وسائل الإعلام ، وحتى صارت الدعوة إلى الحكم بالإسلام . وهكذا الحديث عن فساد نظم الحكم الوضعى غير الإسلامية ، وكل عمل يدعو إلى تقويضها لإحلال الإسلام محلها ، يُعَدُّ جريمة ، ويُعتبر الإقدام على ذلك عملاً إرهابياً رهيباً ومخيفاً ، يُتهم صاحبه بالعمل على قلب نظام الحكم .

وبعبارة أخرى . . أصبح الفصل بين الدين والسياسة ، كالفصل بين العلم والدين ، أو بين الدين والعلوم والأنشطة الاجتماعية من القضايا المسلَّمة بين زعماء البلد السياسيين ، كما هى قضايا مسلَّمة بين الغربيين ، وفرق بيننا وبين الغرب فى هذا الاتجاه ، فله مبرراته هناك أقلها ما حفظوه من قولهم : « أعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ، بينما فى الإسلام : ﴿ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لله ﴾ (١) . وفى الغرب كان فساد الكنيسة والقساوسة ، ووقوفهم ضد التطور الفكرى مبرراً للثورة على الكنيسة ، بينما الإسلام ليس له قساوسة ولا كهنة ، وهو رائد للتقدم العلمى فى كافة مجالات البحث العلمى ، ولأن الإسلام وضع نُظُماً للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ووضع قواعد من شأنها التوصل إلى الحقائق بمنطق علمى وعقلى سديد : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢) .

---

(١) آل عمران : ١٥٤ (٢) الملك : ١٤

ومن هذه العقبات صرف مناهج التعليم بعيداً عن تعميق مفاهيم الإسلام ، لينشأ قادة الأمة جاهلين بها ، فيتحوَّلون إلى خصوم لها ، لأن الإنسان عدوُ ما يجهل .

ومن هذه العقبات : إغراق المسلمين فى الشهوات بتيسيرها لهم بوسائل الإعلام ، وبالتصدير حتى ينسوا ربهم ، فيوجد شعب منحل ، زمامه بيد الشيطان ، يشكله كما يشاء ، ولا يستشعر الفارق بين الإسلام وبين غيره من المعتقدات الدينية أو الفكرية المادية .

ومن العقبات التى يصنعها المستشرقون وتلاميذهم تقويض اللُّغة العربية وإشاعة العامية حتى لا يتيسر الاتصال بالإسلام ومصادره الأصلية العربية - القرآن والسُّنَّة - لصعوبة قراءتها وفهمها ، وحتى يصعب التعبُّد بتلاوة القرآن وتدبره ، والاستدلال به على ما يحتاج الاستدلال به عليه من أحكام الشرع فى شئون السياسة والعمران .

* *

● وقفات مصر من هزَّات الاستشراق :

عندما نهض « قاسم أمين » بالدعوة لما سمى تحرير المرأة بالمعنى الغربى ، وقف المفكرون ضده يحاجونه بمختلف أنواع الحجج ، ومما قيل عن مبدئه : تحرير المرأة ، إنه « تجرير المرأة » يعنى إلى الرذائل .

وهكذا عندما نادى البعض باستبدال الكتابة بالحروف العربية إلى اللُّغة اللاتينية لم يسلم القائلون بهذا من هجوم الشعب ، وهكذا الموقف مع الذين دعوا إلى الحديث بالعامية ، ولا تزال الحرب الضروس بين الشعب وبين دعاة العلمانية ، ودعاة الفصل بين الدين والسياسة .

وعندما نشر « طه حسين » كتابه « الشعر الجاهلى » سنة ١٩٢٦ ، وكتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » سنة ١٩٣٩ ، نهض مَن تصدُّوا له من الإسلاميين ومن زملائه ، أذكر لسيد قطب أنه عمل كتاب يردُّ فيه على كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » برغم أنه لم يكن قد التحق بالإخوان المسلمين ، وأذكر أن زكى مبارك هاجم طه حسين ، رغم أنهما صديقان ومن كبار تلاميذ المستشرقين .

قال أحد أحمد حمدى إمام : إن هجوم زكى مبارك على كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » لم يكن بمناسبة صدوره وإنما له سوابق ، منذ أول محاضرة ألقاها طه حسين فى الجامعة سنة ١٩١٩ ، ثم بعد رجوع زكى مبارك من باريس ووقوفه على حقائق خطيرة عن الاستشراق والتغريب ، وإن كان على فهم قبل سفره .

وبالرغم من أن زكى مبارك وطه حسين ممن تأثروا بكتابات المستشرقين كما ذكرت فى كتابى « السيرة النبوية وأوهام المستشرقين » [١] ، فإنه اختلف مع طه حسين ، بوازع الفطرة واستقلال الشخصية عن طه حسين .

وقد أجاب سامح كريم عن هذا السؤال : لماذا اختلف ؟

فقال [٢] : « نفوذ المستشرقين وآراؤهم وتبعية المثقفين الذين يتلقون دروسهم فى السوربون - فى ترويج آراء الغرب والإيمان بها ، ومحاولة زكى مبارك نقض هذه الآراء والتحرر منها .

ومما يؤكد ذلك أن زكى مبارك تحوَّل تحولاً عظيماً بعد معركة « الشعر الجاهلى » . فخالف آراء المستشرقين وكشف عن تعمُّدهم خلق الشبهات ، ودعا إلى بعث الإمجاد العربية ، وإلى أن يكون التعليم فى الجامعة المصرية باللُّغة العربية ، حتى إن المستشرقين وصفوه بأنه رجل غير مصقول ، وعاقٌ لأنه خان أمانته للتغريب والحضارة الغربية ورسالة الفكر الفرنسى ، وما رسالة الفكر الفرنسى - كما يذهب بعض المؤرخين للأدب - إلا تسميم الفكر العربى وهدمه .

ولقد أحس مهاجمو كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » الذى نشر سنة ١٩٣٩ بمقدماته الخطيرة ، ويحتاج إلى بحث داخلى وخارجى ، ومراجعة آراء أخرى .

وقد اتهم طه حسين بأنه أخذ فكرته فى التشكك فى الشعر الجاهلى

---

(١) ص ٨٧ - ٩٢ (٢) طه حسين فى معاركه الأدبية ص ٣٢٥

عن « مارجليوث » ، كما أنه روَّج لفكر « وليم مارسيه » عن النثر الأدبى الذى عارضه زكى مبارك فى رسالته التى قدمها للحصول على الدكتوراة من فرنسا .

ولم يسكت الأزهر عندما قام أزهرى ، ووضع كتاباً يزعم فيه أن نظام الخلافة الإسلامية وقوانينها ليست واجباً شرعياً اليوم ، فسلبوه شهادة العالمية ، وأفحموه بالردود الشرعية والعقلية ، وأذكر من بينها رد الدكتور ضياء الدين الريس عليه فى شطر كتابه « النظرية الإسلامية السياسية » ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال : « مصر كنانة الله فى أرضه » .

* * *